# الأسسُ المعرفيّة لفلسفةِ الدّين في فكرِ الإمام الخامنئيّ قُدِّسَ سِرُّه

**الشيخ د. محمد باقر كجك**[١]


## ملخّص

**يتناول هذا البحث موقع المعرفة في بنية الدين عند الإمام السيد (علي الحسيني الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه، مستقرئًا نصوصه في خطبه ودروسه ومؤلفاته. ينطلق البحث من أنّ الدين عنده رؤية ومعرفة قبل أن يكون شعائر، ويسعى إلى الإجابة عن سؤالين: ما طبيعة العلاقة بين الوحي والعقل في إنتاج المعرفة الدينيّة؟ وإلى أيّ حدٍّ يستقلّ العقل بفهم النصّ وتأويله؟ ويعالج مصادر المعرفة الأربعة في نظامٍ متدرّج: الوحي أصلًا وميزانًا، والعقل مصدرًا وأداةً، والفطرة والقلب معينًا باطنيًا، والتجربة العقلائيّة سندًا. ثمّ يحرّر العلاقة بين العقل والنص؛ فهي تعاضدٌ يعمل فيه العقل في ضوء الوحي، واستقلالٌ منضبط للعقل في التأويل بالظهور والقرينة، ممنوعٌ حين ينقلب هوى. ويختم بآليات الفهم وتجدّد المعرفة عبر الاجتهاد ضمن الأصول الثابتة، خالصًا إلى أنّ الأسس المعرفيّة أساسٌ حاكمٌ لفهم الدين كلّه.**


**الكلمات المفتاحية**: فلسفة الدين، المعرفة الدينيّة، الوحي، العقل، الفطرة، القلب، التجربة العقلائيّة، التأويل، الاجتهاد، الخامنئي.

١ - أستاذ جامعي في المناهج التربوية، كاتب وباحث في الفكر الإسلامي (لبنان).


https://doi.org/10.68724/ETQ-2026-13-FA-001

# Cognitive Foundations of Religion Philosophy in Imam Khamenei (QS) Thought

Sheikh Dr. Mohammad Baqir Kajk[1]

## Abstract

This research examines the role of knowledge within the structure of religion as conceived by Imam Sayyid Ali al-Hosseini al-Khamenei (QS), drawing upon his sermons, lessons, and written works. This research proceeds from the premise that, in the author's view, religion is a form of vision and knowledge, preceding its manifestation as ritual. It seeks to address two questions: What is the nature of the relationship between revelation and reason in the production of religious knowledge, and to what extent can reason function independently in understanding and interpreting the religious text. It addresses the four sources of knowledge within a hierarchical framework: revelation, serving as both the origin and the ultimate criterion; reason, acting as a source and an instrument; innate human disposition and the heart, functioning as an internal reservoir; and rational human experience, providing a supporting basis. It further clarifies the relationship between reason and the scriptural text: a relationship of mutual reinforcement, wherein reason operates in the light of revelation, allowing for a disciplined exercise of reason in interpretation, while strictly prohibiting any approach that descends into mere personal whim. The work concludes by examining the mechanisms of comprehension and the renewal of knowledge through (ijtihad) conducted within the bounds of established, immutable principles, ultimately positing that these epistemological foundations serve as the governing framework for understanding religion in its entirety.

Keywords:

Religion Philosophy, Religious Knowledge, Revelation, Reason, Innate human nature, the Heart, Rational Experience, Interpretation, Ijtihad, Khamenei (QS)

1 - Educational curricula university lecturer, writer, researcher in Islamic thought (Lebanon).

## المقدمة:

من أين يعرف المؤمن دينه؟ وبأيّ أداةٍ يبلغ مراد الشـارع؟ وأين ينتهي ما يدركه العقل وحده؟ وأين يبدأ ما لا طريق إليه سـوى الوحي؟ هذه الأسـئلة تسـبق كلَّ بحثٍ في العقيدة والشريعة، وينهض عليها تصوّر الدين برمّته.

يشتغل الإمام السـيد (علي الحسـيني الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّهُ على هذه الطبقة الأساسيّة من فكره الديني، من دون أن يفردها ببحثٍ مصطلحيٍّ قائمٍ بذاته، حيث تتوزّع مواقفه على خطبه ودروسه ومؤلفاته القرآنيّة. يتحدّث قُدِّسَ سِرُّهُ عن العقل ومنزلته، وعن الوحي وأصالته، وعن الفطرة والقلب، وعن التجربة البشريّة ومداها. ومن هذا كلّه تتولّد رؤية معرفيّة لها ملامح واضحة، تنتظر من يجمع شتاتها ويعيد ترتيب عناصرها.

تحتلّ هذه المسألة موقعًا أصيلاً في فكر الإمام الشهيد قُدِّسَ سِرُّهُ. فالخلاف حول مصدر المعرفة الدينيّة وحدودها هو الذي يرسم، في نهاية المطاف، صورة الدين ودوره في حياة الإنسان. فمَنْ جعل العقل وحده ميزانًا انتهى إلى دينٍ على مقاس العقل، ومَنْ أقصى العقل عن سـاحة النص انتهى إلى جمودٍ يغلق باب الفهم. وبين هذين الحدّين يتحرّك تصوّر (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّهُ، فيمنح كلَّ أداةٍ موقعها من غير أن تبتلع إحداهما الأخرى.

نحدد إشـكاليّة البحث عبر تحرير هـذه الرؤية وضبط بنيتها: ما الأسـس المعرفيّة التي يقوم عليها فهم الديـن عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّهُ؟ وكيف تتـوزّع الأدوار بين الوحي والعقل في

إنتاج المعرفة الدينيّة؟ ومن هذه الإشكاليّة ينبثق سؤالان: ما طبيعة العلاقة بين الوحي والعقل في إنتاج المعرفة الدينيّة؟ وإلى أيّ حدٍّ يستطيع العقل أن يستقلّ بفهم النص الديني وتأويله؟

يلتزم البحث حدَّه المعرفيّ الفلسفيّ، فتبقى فروع الفقه التفصيليّة، ومسائل الدولة والسلطة، خارج مركزه، حفاظًا على وحدة الموضوع ومنعًا لتشعّبه، إذ المطلوب هو تحرير الكيفيّة التي يُعرف بها الدين، قبل استقصاء ما يُعرف منه.

أمّا المنهج فاستقرائيٌّ في أساسه، حيث تُجمع نصوص الإمام أولاً، وتُقرأ على حالها، ويُستخرج منها البناء المعرفيّ كما تنطق به هي، وذلك بمعزل عن إسقاط نظريّة سابقةٍ عليها.

## أولًا: مفهوم الدين وطبيعته المعرفيّة:

قبل السؤال عن مصادر المعرفة الدينيّة، ينبغي تحرير المعروف نفسه. ما الدين الذي نطلب معرفته؟ فالجواب عن ماهيته يسبق الجواب عن طرق إدراكه، ويرسم حدوده. يقارب الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه الدين بوصفه معرفةً في المقام الأول، ورؤية للعالم والإنسان والمصير، ثم تتفرّع عنها الشعائر والأحكام. يتناول هذا المبحث هذا التصور في أربعة مطالب: طبيعة الدين المعرفيّة، وأقسام الأسس التي يقوم عليها، ومنزلة القرآن والسنّة متنًا أوّل للمعرفة، ثمّ الحدّ الذي تقف عنده المعرفة الدينيّة.

### ١ - الدين معرفةً قبل أن يكون شعيرة:

يبدأ الأمر من تعريفٍ يُخرج الدين من دائرة الطقس الفردي. فالدين عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه: «... هو بالدرجة الأولى رؤية كونيّة ومعرفيّة، معرفة لهذا العالم، والإنسان، والمسير والطريق والهدف. مجموعة هذه المعارف تشكّل أساس الدين»[1]. يجعل هذا النص النواة معرفيّة، وتُرتّب الشعائر والأحكام بعد المعرفة لا قبلها. والمعرفة هنا ليست علمًا نظريًا يُضاف إلى الحياة من

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٣)، ص١٥.

خارجها، هي التي ترسم للحياة اتجاهها ومعناها. وفي السياق نفسه يجعل الدنيا ساحةَ عمل هذه المعرفة ومجالَ تحقّقها، فالدين والدنيا متّصلان تتغذّى ساحتهما من معرفةٍ واحدة[١].

ويمضي الإمام الشهيد قُدِّسَ سِرُّه أبعد من ذلك. إذ يجعل الدّين خطة شاملة لإدارة الحياة، تتجاوز حدود العبادة الخاصة بالفرد. ويردّ على من يحصره في الشأن الشخصيّ التعبّديّ وحده[٢]. وهذا التوسيع يحمل في طياته أثرًا معرفيًا مباشرًا. فحين يصير الدين خطةً للحياة كلها، يصبح إدراكه الصحيح شرطًا لتطبيقه الصحيح. ومن هنا يكتسب السؤال المعرفيّ موقعه في فكره؛ إذ هو المدخل الذي منه يُدخَل إلى الدين فهمًا وعملاً، والخطأ فيه ينعكس خطأً في التطبيق كلّه.

ولهذا الفهم أثرٌ في تحديد علاقة الدين بالعقل. فالدين، في عبارته، «لم يأت ليكون بديلاً عن العقل، وناسخًا له، بل لهداية العقل وإعانته... ليجعل العقل قادرًا على الرؤية الصحيحة»[٣]. فالمعرفة الدينيّة تُخاطب العقل وتصقله، وتُعينه حين تحفّه الأهواء والأطماع فتعوقه عن أداء دوره، وتضيف إليه ما يعجز عن بلوغه وحده. فهي معرفةٌ تُقيم العقل وتُكمله، ويبقى العقل بها موصولاً بالوحي. من هذا التوازن تنطلق بقيّة المسائل: مصادر هذه المعرفة، ومتنها، وحدودها.

ويُبرز الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه الطبقة الفلسفيّة في هذا التصوّر. فكلُّ مدرسةٍ تدّعي إدارة حياة الإنسان تنطلق، عنده، من «الرؤية والنظرة التي يتبناها الدين أو المذهب تجاه الإنسان والعالم»، وجزءٌ منها «يقوم على أرضيّة فلسفيّة» يُعبَّر عنه بالرؤية الكونيّة[٤]. فالمعرفة الدينيّة تبدأ من تصوّرٍ عن العالم وأصله، وعن الإنسان وغايته. ومن هنا يقابل قُدِّسَ سِرُّه بين رؤيتين: رؤية دينيّة ترى للخلق هدفًا وغاية، ورؤية ماديّة «تعتبر أنّ خلق الإنسان ووجوده في العالم لا هدف له»[٥]. الفارق بينهما معرفيٌّ في أصله، ثمّ ينعكس على الحياة كلّها. فالمعرفة الدينيّة عنده رؤية للوجود

١ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٣)، ص١٥.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة بمناسبة عيد المبعث النبوي الشريف، ١١ آذار ٢٠٢١.
٣ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص١٣٩.
٤ - علي الحسيني الخامنئي: تفسير سورة براءة، ص٧١٥.
٥ -انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص٤٢٥.

قبــل أن تكون أحكامًا للســلوك. ولهذا التمييز ثمرةٌ عمليّة: مَن فهمَ الديــن رؤية كونيّة طلبَ فيه البرهــان والاقتناع، ومَن اختزله في مجموعة تكاليف اكتفى بالتقليد والتلقين. الأول يبني معرفةً راسخة، والثاني يُنشئ تديّنًا هشًّا سرعان ما يتزعزع أمام الشبهة.

## ٢ - أقسام الأسس المعرفيّة في الإسلام:

تتــوزّع المعرفة الدينيّة عند الإمام (الخامنئي) دُامَ عِزُّهُ على مســتوياتٍ متمايزة يجمعها نســقٌ واحد. وهو يصرّح بأنّ في الإسلام «أسسًا معرفيّة فرديّة وقلبيّة واجتماعيّة وسياسيّة ودوليّة. ويُدرج الحريّة والعدالــة في صميم هذه القضايا المعرفيّة التي على المجتمــع أن يحلّها ويفكّر فيها[١]. فهــو دُامَ عِزُّهُ يمدّ المعرفة الدينيّة من قلــب الفرد إلى نظام الاجتماع والدولــة، ويجعلها منظومةً متصلة الحلقات لا جزرًا متفرقة. فما يُعرف في مســتوى القلب يمتدّ أثره إلى مستوى الاجتماع، والعكس صحيح.

ويؤكّــد هذا الطابع المنظوميّ في موضعٍ آخر. المنظومة المعرفيّة للإســلام، كما يعرّفها، هي وجهة نظره في الكون والإنســان ودوره في العالم والذات الإلهيّة وصفاتها[٢]. تشدّ هذه العناصر بعضها إلى بعض في بناءٍ واحد معرفةٌ بالله في أعلاه، ومعرفةٌ بالعالم، ومعرفةٌ بالإنســان وموقعه ومصــيره. هذه ثلاثيّة يقوم عليها البنــاء، ومنها تتفرّع القيم والأحــكام. فالمعرفة الدينيّة في هذا التصور رؤية كليّة للوجود قبل أن تكون مجموعة أحكام.

ولا تنفصــل هذه المعرفة عن ميدان العمل والاجتماع؛ لأنّ المعرفة الدينيّة عنده دُامَ عِزُّهُ تبلغ حــدّ القول: «ديننا عين سياســتنا»[٣]. ويرى أنّ وصول الأمة إلى حقيقــة أنّ الدين متّصلٌ بالحياة

١ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء جمع من طلاب الجامعات، ١٨ نيسان ٢٠٢٣.

٢ - انظر: علي الحســيني الخامنئي: كلمة بمناســبة المبعث النبوي الشريف وحلول العام الهجري الشمسي، ٢٢ آذار ٢٠٢٠.

٣ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٧)، ص٢٧.

والسياسة من عوامل اقتدارها، وأنّ خصوم الدين إنما يخشون دينًا له حضورٌ في الحياة العامة[١]. فالمعرفة هنا فاعلة، حيث تتجاوز التصديق النظريّ إلى توجيه السلوك والاجتماع. وهذا الامتداد الاجتماعيّ يبقى ثمرةً للأصل المعرفيّ ومنبثقًا منه، منبنيًا عليه لا سابقًا له.

ويـردّ الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه دعوى فصل الدين عن الحيـاة العامة إلى أصلها. فالقول إنّ «الدين يجب أن لا يتدخّل في الشؤون السياسيّة» حيلةٌ، عنده، «طرحها أولاً المستبدّون العتاة»، غايتُها عزل الدين عن سـاحة عمله[٢]. فحين تُقصر المعرفة الدينيّة على الفرد وعبادته، تُفرَغ من شطرها الأكبر. وسعتُها تمتدّ إلى نظام الحياة، فتُخاطب الفرد والمجتمع معًا.

### ٣ - القرآن والسنة متنًا معرفيًا أوّلَ:

لكل معرفةٍ متنُها الذي تُردّ إليه وتُقاس به. ومتن المعرفة الدينيّة عند (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه القرآن والسنّة. يصف القرآن بأنه «الوثيقة القطعيّة في الإسلام»، ويأسف لانصراف كثيرٍ من الدارسين عنه إلى «الروايات والمنقولات الظنيّة ... وأحيانًا الضعيفة»، حتى نشأت من ذلك تصوّرات بعيدة عن الفهـم القرآني[٣]. فالترتيب في كلامه مقصود: القرآن أولاً بوصفه القطعيّ الذي يُبنى عليه، ثمّ ما يوافقه من المنقول. وهذا الترتيب نفسه معيارٌ معرفيّ يفرز الأقوى من الأضعف في مصادر الفهم.

والتفقـه في الدين، عنده، فهمٌ لأصوله الكبرى قبل فروعه. «التفقه هو فهم المعارف الأصليّة للدين»، ووسـيلته أصول الدين: التوحيد والنبوة والنظرة إلى الإنسـان والهـدف من الخلق[٤]. وبمعرفة الموقف من هذه القضايا الكبرى، كما يقرّر، تُعرف سائر الأديان والاتجاهات الفكريّة. فالمعرفـة الدينيّة تُبنى من الأصل إلى الفرع، ومن الرؤية الكليّة إلى التفاصيل. من قلب الأصول تُقرأ الفروع، ومن الرؤية يُفهم الحكم.

---

١ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٧)، ص٢٨.
٢ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٣)، ص١٦.
٣ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص٢٦.
٤ - علي الحسيني الخامنئي: تفسير سورة براءة، ص٧١٨.

أمّا السنّة فامتدادٌ للقرآن وبيانٌ له. حاكميّة الدين، في تقريره، مأخوذةٌ من القرآن والأحاديث معًا، ويستشــهد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤][١]. ويجعل معارف أهل البيت طريق الأمة إلى الإسلام الصحيح، فيرى أنّ على المسلمين أن «ينهلوا المعارف الإسلاميّة عن طريق أهل بيت النبي»[٢]. ويعدّ نهج البلاغة متنًا جامعًا تُلتمس فيه الأصول الاعتقاديّة للإسلام[٣]. القرآن نصٌّ أول، والعترة بيانٌ له، والمعرفة الدينيّة تُستمدّ منهما معًا في تلازمٍ لا ينفكّ.

ويقــرن الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه بين هجران القرآن ونقــص الأمة. النقص الذي يعانيه العالم الإسلامي، عنده، مردّه الابتعاد عن المعارف القرآنيّة، فالقرآن «كتاب الحكمة والعلم»[٤]، ويصفه كذلك بأنه «كتاب العلم والمعرفة»، يجمع إلى بعده المعرفيّ تعليماتٍ عمليّة للحياة[٥]. وهو كتاب هداية في المقام الأول: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩][٦]، حيث يجتمع في القرآن وصفان متلازمان: مصدرٌ للمعرفة، ودليلٌ للعمل، والسنّة تُفصّل هذا وتبيّنه وتصله بالحياة.

ويحرّر قُدِّسَ سِرُّه معنى الأصول التي يُبنى عليها هذا المتن. فأصول الدين، عنده، القضايا الكبرى التي «ينطلق منها المذهب ليبني عليها ســائر أفكاره التفصيليّة»، ورأسُها «الرؤية التوحيديّة إلى العالم» القائمة على خالقٍ قادرٍ لا نهاية لصفاته، وعلى إنســانٍ خُلق لغاية تتجاوز قدراتُه بلوغها وحــده[٧]. من هذه الأصول تتفرّع المعارف التفصيليّة، وإليها تُردّ عند الاشــتباه. فالبناء المعرفيّ يقوم على قاعدةٍ عقديّة كليّة، لا على تفاصيلَ متناثرة. ومن غفل عن هذه القاعدة وانشغل بالفروع قبل أصولها بنى معرفةً مقلوبة، تُقدّم الجزئيّ على الكليّ، والفرعَ على الأصل.

---

١ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في الذكرى الثانية والثلاثين لرحيل الإمام الخميني، ٤ حزيران ٢٠٢١.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، ص١٨.
٣ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: العودة إلى نهج البلاغة، ص٢٨.
٤ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١١)، ص٢٧٢.
٥ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في محفل الأنس بالقرآن الكريم، ٢٥ نيسان ٢٠٢٠.
٦ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء المشاركين في مسابقات القرآن الكريم الدوليّة، ٢٢ شباط ٢٠٢٤.
٧ - علي الحسيني الخامنئي: تفسير سورة براءة، ص٧١٦.

**٤ - حدود المعرفة الدينيّة:**

يقف كل إدراكٍ عند حـدّ. والمعرفة الدينيّة عند الإمـام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه تعرف حدّها من جهتين متكاملتين: تفاوت المصـادر في القوة، وحاجة العقل إلى الوحي. وبيان هذين الحدّيـن يحفظ المعرفة الدينيّة من إفراط من يطلق العقل بلا ضابط، ومن تفريط من يعطّله بالكليّة.

أمّا الجهـة الأولى فمدارها التمييز بـين القطعيّ والظنيّ. القرآن وثيقـةٌ قطعيّة، والمنقول منه صحيحٌ ومنه ضعيف، والبناء على الظنيّ يورث تصوّراتٍ منحرفة عن الأصل[١]. الحدّ هنا داخليّ في نسـيج المعرفة نفسـها: قوّة الدليل هي التي ترسم مدى ما يُبنى عليه، فلا يُسوّى بين القطعيّ والظنيّ في الاحتجاج. ثمّ إنّ فهم المتن نفسـه يحتاج تدبّرًا يتجاوز ظاهر اللفظ، فالله «يسـكب أحيانًـا بكلمة واحدة، بتلميح، بحرًا من المعرفـة»، ولا يُدرك ذلك إلا بالتأمّل[٢]. المعنى القرآنيّ أعمق من أن تبلغه قراءةٌ عابرة.

وأمّا الجهة الثانيّة فمدارها قصور العقل عن الاسـتقلال. فالعقـل أداةٌ أصيلة، غير أنّه يخطئ ويضلّ حين يُترك وحده بين الأهواء. دور النبيّ، كما يقرّره الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه، «مسـاعدة العقـل البشري كي لا يخطئ ولا يضلّ ولا يخلط بين السراب والماء»[٣]. والعقل، مع نفاسـته، ثروةٌ معطّلة ما لم يُوقَظ ويُقَد، ويشبّه حال الغافل عنه بحال النائم على كنزٍ لا ينتفع به، ويستحضر قول النبيّ: «العقل عقال من الجهل»[٤]. فالوحي عاصمٌ للعقل من الزلل، ومقوّمٌ لمسيره، ولذلك كان التبيين من أهمّ وظائف الأنبياء[٥].

ولهذا المعنى مصدر في نصوص أهل البيت التي يسـتند إليهـا. فالأنبياء بُعثوا ليثيروا للناس

---

١ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص٢٦.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في محفل الأنس بالقرآن الكريم، ١٤ نيسان ٢٠٢١.
٣ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء مسؤولي البلاد وسفراء الدول الإسلاميّة، ٢٨ كانون الثاني ٢٠٢٥.
٤ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠٠٩)، ص٣٢٥.
٥ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٦)، ص٢٧٦.

«دفائـن العقول»[١]؛ فالعقل ثروةٌ مدفونة يوقظها الوحي ويحرّرها من ركام الغفلة. وفي الحديث تعريف العقل بأثره وغايته: «ما عُبِد به الرحمن واكتُسِـب به الجنان»[٢]. يجتمع من الجهتين حدُّ المعرفـة الدينيّـة: قطعيٌّ يُبنى عليه، وظنـيٌّ يُتوقّف عنده، وعقلٌ يُهتدى بالوحي فلا يسـتبدّ ولا يُعطَّل. ومن هذا الحدّ بالذات ينفتح السؤال عن مصادر المعرفة الدينيّة وعن صلة العقل بالنص.

## ثانيًا: مصادر المعرفة الدينيّة:

إذا كان الدين معرفةً في أصله، فمن أين تُستقى هذه المعرفة؟ لا يردّها الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه إلى منبـعٍ واحد. الوحي أصلٌ وميـزان، والعقل أداةٌ ومصـدر، والفطرة والقلـب معينٌ باطنيّ، والتجربة البشريّة العقلائيّة عونٌ يسندها جميعًا. أربعة مصادر تتضافر، يعلو الأصلُ منها على ما دونه، ويخدم الفرعُ ما فوقه.

### ١ - الوحي أصلاً وميزانًا:

في رأس المصـادر يقف الوحي. هو المنبـع الذي تنزل منه المعرفة الدينيّـة، والميزان الذي يُعرض عليه ما عداه. يقرّر الإمام الشـهيد (الخامنئـي) قُدِّسَ سِرُّه أنّ الدين «يوحي به الله إلى نبيه، والنبي هو الذي يبلّغ الرسـالة»، ويجعل ذلك «أصلاً من أصول جميع الأديان، وبدونه لا يكون للدين معنى»[٣]. هذه العبارة تضع الوحي موضع المُقوِّم للدين، فلا دين يقوم بلا وحيٍ يؤسّسـه ويحدّد معالمه. وما دون الوحي من المصادر يعمل في دائرته، لا في معزلٍ عنه.

وغاية هذا الوحي معرفيّة في جوهرها. فالهدف من بعث الرسل هو ربطُ الإنسان بخالقه وحملُه على الإيمان به والتمسّك بتعاليمه، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾

١ - الشريف الرضي: نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح، الخطبة الأولى، ص٤٣.
٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص١١، كتاب العقل والجهل، الحديث ٣.
٣ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص١٤١.

[الفتح: ٨][1]. الوحي يفتح للإنسان بابًا إلى معرفةٍ لا تبلغها أدواته وحدها: معرفة المبدأ والمعاد وما وراء الحسّ. من هنا كانت أصالته؛ فهو يمدّ الإنسان بما يعجز عن تحصيله من غير طريقه.

إنّ حاجة البشر إلى هذا المصدر مستمرة، غير موقوتة بعصر. فالبعثة، في تقريره، ليست حدثًا دفعيًا انقضى وانتهى أثره؛ لأنّ ثمارها ممتدّةٌ تتجدّد كلما تجدّدت أجيال الناس[2]. ولذلك يبقى الوحي أصلاً حيًّا، تعود إليه المعرفة الدينيّة كلما التبس الطريق أو اختلط الحقّ بالباطل. فهو المرجع الأول والأخير في ميزان المعرفة. على أنّ تقديم الوحي لا يعني إلغاءَ ما سواه من المصادر؛ إذ الوحي هو الذي يرسم الإطار الذي تعمل فيه سائر الأدوات ويصحّح انحرافها، وبه تُقاس ثمرات العقل، وتُوزن خواطر القلب، وتُقوَّم نتائج التجربة. وهذه المرجعيّة هي التي تمنح المعرفة الدينيّة وحدتها، وتصون الأدوات الأخرى من أن تنفرد فتضلّ.

## ٢ - العقل مصدرًا وأداةً:

يلي الوحيَ العقل. وهو عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه مصدرٌ وأداةٌ في آنٍ واحد: يدرك بنفسه بعض الحقائق، ويخدم فهم الوحي وتنزيله. وهو يجعل التربية العقلانيّة «المسألة الأولى وهي المسألة الأهمّ»، ويصفها بأنها «استخراج قوى العقل الإنساني» ورفعُ الإنسان «لمشعل العقل البشري كي يتمكّن... من تشخيص الطريق والسير فيه»[3]. فالعقل نورٌ يكشف الدرب، لا مجرد آلةٍ للحساب، وبه يميّز الإنسان الهدى من الضلال قبل أن يتلقّى تفصيل الشريعة.

في الحديث المنسوب إلى أهل البيت عليهم السلام أنّ الله لمّا خلق العقل قال له: «أقبِل فأقبَل، ثمّ قال له: أدبِر فأدبَر، فقال: وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقًا أحبَّ إليَّ منك... بك آخُذ وبك أُعطي»[4].

---

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص١٠٠.

٢ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء مسؤولي البلاد وسفراء الدول الإسلاميّة، ٨ شباط ٢٠٢٤.

٣ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠٠٩)، ص٣٢٤.

٤ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص١٠، كتاب العقل والجهل، الحديث الأول.

وهـذه منزلةٌ ترفع العقل إلى موضع الخطاب والتكليف والثواب. فالعقل حجّةٌ باطنة يُحاسـب الإنسان على إعمالها أو تعطيلها.

ومـع هذه المنزلة يبقى العقل موصولاً بالوحي، عاملاً في ضوئه. فالدين، كما تقدّم، جاء «لهداية العقل وإعانته»[١]، يسـدّده حين تحفّه الأهواء، ويمدّه بما لا سبيل إليه من غير طريق النبوة. ويستكثر من شـواهد القرآن على منزلة العقل ودعوته إلى إعماله: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تَتَفَكَّـرُونَ**﴾، والثناء عـلى ﴿**أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾. فالعقل مصدرٌ يعمـل في ضوء الوحي، والوحـي خطابٌ لعقلٍ قادرٍ على الفهم والاسـتجابة. هذا التلازم يحفظ العقل من الاسـتبداد، ويحفـظ النقل من الجمود. فالإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه يقف موقفًا وسـطًا بين من قدّس العقل حتـى جعله بديلاً عـن الوحي، ومن أهدره حتـى عطّل النظر والاجتهـاد. فالعقل عنده شريكٌ للوحي في إنتاج المعرفة، يعمل تحت سـقفه ويستضيء بنوره. وبهذا يبقى بابُ الفهم مفتوحًا، ويبقى الميزانُ محفوظًا.

ويحسم الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه مسألة العلاقة بين الدين والعقل حسمًا صريحًا. فالأنبياء «لا يأتـون لمحاربـة العقل بقوة الوحي، بل يثـيرون ما في عقول الناس مـمّا أودعها الله فيها مـن كنوز»، ومن ظنّ أن الدين يعارض العقل «إمّا أن يكون جاهلاً بالدين، أو لا يكون له حظٌّ من العقل»[٢]. بهذا يقلب المعادلة التـي جعلت الدين خصماً للعقل. الدين، في تقريره، «هو الصحـوة والوعي والفهم والتعقل»، وما نُسـب إليه من أنّه «أفيون الشـعوب» تخديرٌ يناقض حقيقته[٣]. العقل مصدرٌ يوقظه الوحي ويحرّره، لا خصمٌ يقمعه ويسكته. والوعي الذي يدعو إليه الدين، وعيٌ عمليّ يميّز به المؤمن مواقع الحقّ من الباطل في حياته، لا معرفةً نظريّة معزولة عن السلوك.

---

١ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص١٣٩.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص١٣٨.
٣ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص٦١.

### ٣ - الفطرة والقلب والشهود:

دون العقل وفوق الحسّ ينبوعٌ باطنيّ: الفطرة والقلب. الفطرة ميثاقٌ أوّليّ أودعه الله في الإنسان، والأنبياء إنما جاؤوا ليستأدوه ويوقظوه. «فطر الله الناس في فطرته على مناصرة الحقّ والعدل»، ويقرأ في ضوء ذلك قول أمير المؤمنين: «ليستأدوهم ميثاق فطرته»[١]، وهو المعنى القرآنيّ في ﴿فِطْرَتَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. المعرفة الدينيّة تجد في الفطرة أرضًا مهيّأة تسبق التعليم، فالنبوّة تُثيرها ولا تنشئها من عدم. ولهذا الأصل الفطريّ أثرٌ منهجيّ: تعاليم الدين لا تُفرض على الإنسان فرضًا غريبًا عن تكوينه، فهي توقظ فيه ما هو مغروسٌ في أصل خلقته. والدعوة إلى التوحيد والعدل تجد في النفس استعدادًا سابقًا يستجيب لها، وبذلك يُخاطب الدين فطرة الإنسان في كل زمان ومكان.

ويقترن بالفطرة القلب. المعرفة، في تصوّره، لا تكتمل بالبرهان الذهنيّ وحده، فثمّة طمأنينةٌ قلبيّة تصدّق ما يبلغه العقل وتحوّله إلى يقينٍ حيّ. فهو يشير إلى «السكينة القلبيّة واطمئنان القلب» بوصفها «حالة على جانب كبير من الأهميّة»، ويستحضر سؤال إبراهيم ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠][٢]. اليقين درجةٌ فوق العلم، وموضعه القلب لا الذهن وحده.

وهذا البُعد القلبيّ ممتدٌّ في تقليد مدرسته العرفانيّة. فعند الإمام (الخميني) «المعرفة صفة القلب»، لا مجرّد حياكة مصطلحات ذهنيّة[٣]، وأنّ العلم ما لم يصل القلب بقي حجابًا دون الحقيقة. وعلى هذا النهج يدعو الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه إلى «مزج المعنويّة بالمعرفة» وتقوية الارتباط القلبيّ الشخصيّ بالله[٤]. فالمعرفة الدينيّة في أعلى درجاتها ذوقٌ وشهود، تُعاش قبل أن تُصاغ، ولا تقف عند حدّ التصوّر الذهنيّ. غير أنّ هذه المرتبة القلبيّة لا تعارض العقل ولا النقل، فهي ثمرةٌ لهما ومصدّقةٌ لما يقرّرانه. فالقلب يتلقّى ما بلغه العقل واستقرّ عليه النقل، فيحوّله من

---

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٦)، ص٢٧٦.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٧)، ص٢٤٦.
٣ - روح الله الموسوي الخميني: الأربعون حديثًا، ص٧٣.
٤ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١١)، ص٤٧٦.

معرفةٍ مكتسبة إلى حالٍ راسخة. بذلك تكتمل دائرة المصادر الباطنة: فطرةٌ تسبق، وعقلٌ يبرهن، وقلبٌ يذوق ويطمئنّ.

### ٤ - التجربة والمعرفة العقلائيّة:

يبقى رافدٌ رابع: التجربة البشريّة والمعرفة العقلائيّة. فالإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه لا يقصي العلم البشريّ عن ساحة الدين، ولا يجعله ضدًّا له. الإسلام عنده «دين المعنويات ودين العلم في الوقت نفسه»، ويدعو إلى حياةٍ «عقلانيّة ومنطقيّة وعلميّة ومتقدمة» مقرونةٍ بالالتزام الدينيّ والقيم الأخلاقيّة[١]. العلم والدين خطّان يلتقيان في بناء الإنسان، لا خصمان يتنافيان على موضعه. وهذا الموقف يقطع الطريق على قراءةٍ تجعل الدين خصمًا للعلم أو عائقًا دونه. فالمعرفة العلميّة والعقلائيّة، عنده، جزءٌ من عُدّة المؤمن، بها يعمّر دنياه ويخدم دينه. غير أنّها تبقى رافدًا يخدم، لا أصلاً يحكم؛ فموقعها في البناء تحت الوحي والعقل، تسير في ضوئهما ولا تتقدّم عليهما.

ويضاعف الإمام الشهيد (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه قيمة العلم بربطه بالدين نفسه. فالدين «ليس لمجرّد عمارة الآخرة، إنّما لأنّه يعمر دنياكم أيضًا». والعلم من أعظم مصادر الاقتدار التي يحثّ عليها[٢]. ويردّ دعوى تعارض العلم والدين إلى «وساوس» صُنعت «ليثبتوا أنّ العلم لا ينسجم مع الدين»، ويرى في تقدّم بلدٍ تُرفع فيه راية الدين شاهدًا على انسجامهما[٣]. فالتجربة والمعرفة البشريّة جزءٌ من عُدّة المؤمن، يدعو إليها الدين ويوجّهها، لا يقف حائلاً دونها.

ويعتدّ بالتجربة التاريخيّة مصدرًا للاعتبار والدرس، فيستحضر ازدهار الحضارة الإسلاميّة في قرونها الأولى ويسمّيه صراحةً «تجربة»[٤]، تُستخرج منها العبرة للحاضر وتُقاس عليها مسالك النهوض. فالمعرفة العقلائيّة والخبرة الإنسانيّة، في هذا التصوّر، تعضدان المعرفة الدينيّة

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص١١٦.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠٠٩)، ص٥٥٢.
٣ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٩)، ص٢٧٢.
٤ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١١)، ص٢٣٥.

وتخدمان مقاصدها، ما دامتا منضبطتين بالأصول ومهتديتين بالوحي.

تجتمع المصادر الأربعة في بناءٍ متراتبٍ واحد: وحيٌ يؤسّس ويحكم، وعقلٌ يدرك ويفهم، وفطرةٌ وقلبٌ يذوقان ويطمئنان، وتجربةٌ عقلائيّة تعضد وتخدم، لا يستقلّ أحدها عن الآخر، ولا يلغيه أعلاها. ومن هذا التكامل بين المصادر ينبثق السؤال التالي: كيف يشتغل العقل على النصّ فينتج منه المعنى الدينيّ؟

## ثالثًا: العلاقة بين العقل والنص في إنتاج المعنى الديني:

هنا يبلغ البحث قلبه. فالسؤالان اللذان انطلق منهما -علاقة الوحي بالعقل، ومدى استقلال العقل بفهم النصّ- يلتقيان هنا. النصّ معطى، والعقل فاعل، والمعنى الدينيّ ثمرة تفاعلهما. نتتبع هنا كيف يشتغل العقل على النصّ عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه: معيارًا في الأصول ومفتاحًا في الفهم، بحجّيّة لها حدود، واستقلالٍ في التأويل له ضوابط، في تكاملٍ وثيقٍ بين العقل والنقل.

### ١ - العقل معيارًا في الأصول ومفتاحًا في الفهم:

يفرّق الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه بين مقامين للعقل في الدين. في الأصول هو المعيار، وفي فهم النصّ هو المفتاح. يشدّد على أنّ «البصيرة والوعي مقدمة لازمة للدين»، ويأسف لتصوّرٍ شائع يجعل الدين «إلغاء البصيرة والوعي» و«سدّ منافذ الفهم»؛ فأصول الدين تُدرك بالعقل والنظر لا بالتقليد، والتقليد إنما موضعه الفروع[1]. المعرفة الأصليّة للدين قيامها على العقل، والفرعيّة مرجعها التخصّص. وهذا التمييز يحرّر موضع العقل من الالتباس.

وفي مقام الاستنباط يجعل قُدِّسَ سِرُّه العقل مصدرًا إلى جانب النقل. يقول إنّ عالم الدين «يريد اكتساب المعارف الإسلاميّة... من الكتاب والسنة والعقل»، فبعضها «مرتبط بالعقل، وبعضها الآخر مرتبط بالكتاب والسنة؛ أي بالنقل»، والاجتهاد «كيفيّة استخلاص هذه المعارف

١ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص١٧٣.

من مصادرها»[١]. العقل هنا ليس خارج النصّ يزاحمه، بل داخل عمليّة الفهم يخدمها، به تُرتَّب الأدلة، وتُوزن القرائن، ويُستخرج الحكم من مظانّه. وهذا الدمج بين العقل والنقل في الاستنباط هو ما يميّز الاجتهاد الحيّ من النقل الجامد؛ فالمجتهد يُعمل عقله في فهم النصّ وترتيب أدلّته، لا ينقله نقلاً أعمى.

ولهذا التفريق نتائج تترتب في تحرير موضع العقل. فالعقل الذي يُدرك أصول الدين هو نفسه الذي يخدم فهم النصّ في الفروع، غير أنّ دوره يتبدّل بتبدّل المقام: معيارٌ مستقلّ حيث يستقلّ، وخادمٌ للنصّ حيث يَرِد النصّ. بهذا يتجنّب الإمام (الخامنئي) قدس سره طرفين: عقلاً يستغني بنفسه عن الوحي، ونصًّا يُتلقّى بلا عقلٍ يفهمه. فالعقل والنصّ عنده يتقاسمان إنتاج المعنى، لا أنهما يتنازعانه.

## ٢ - حجيّة العقل القطعي وحدودها:

حجيّة العقل عند الإمام (الخامنئي) قدس سره منوطةٌ بالقطع. الاجتهاد الصحيح، في تقريره، «لا يعني الاعتماد على الظنون غير المعتبرة»، ولا يكون «اجتهاداً بالرأي يعتمد على الظنون غير المعتبرة كالقياس والاستحسان وأمثالهما»، فـ«جميع وسائل الاستنباط عندنا في الفقه تنتهي... إلى القطع واليقين»[٢]. هنا يُرسم الحدّ بدقّة: العقل القطعيّ حجّة، والظنّ المجرّد مردود. القياس والاستحسان خارج دائرة الحجيّة.

ولهذه الحجيّة جذرها في نصوص أهل البيت عليهم السلام. ففي الحديث أنّ «لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة فالعقول»[٣]. العقل حجّةٌ باطنة تقابل حجّة الوحي الظاهرة وتصدّقها. غير أنّ حجّيته لا تُطلق بلا قيد، فهي في

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٩)، ص٣٠٠.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص٤٠١.
٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص١٦، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٢.

القطعيّ من مدركاته لا في كل خاطرٍ يعرض. فليست حجّيّة العقل رخصةً لكل من ادّعى أنّ عقله يحكم بكذا، بل هي حجّيّة البرهان القطعيّ الذي يشترك العقلاء في إدراكه.

وفي هـذا التقييد حكمةٌ منهجيّة. فإطلاق العقل بلا قيد القطـع يفتح الباب للظنون والأهواء أن تلبس لبوس البرهان، وتعطيلُه بالكلّيّة يغلق باب الاجتهاد ويجمّد الفهم. فالإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه يمسـك الطرفين: يعترف بحجّيّة العقل القطعيّ ومدركاته اليقينيّة، ويردّ ما دون ذلك من الظنون التي لا دليل عليها. فالقياس والاستحسان مردودان لأنهما ظنٌّ بلا حجّة، والعقل القطعيّ مقبولٌ لأنه يقينٌ يقابل اليقين.

### ٣ - مدى استقلال العقل بتأويل النص:

هنا يأتي السؤال الأدقّ: إلى أيّ حدّ يستقلّ العقل بتأويل النصّ؟ جواب الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه مزدوج: استقلالٌ منضبط، من دون انفلاتٍ بالهوى. يمنع التفسير بالرأي، ويجعل مصداقه الأبرز «تبني وجهة نظر محددة وحمل الآية عليها، بغض النظر عن القرائن والمؤشرات والظهورات»[١]. الضابط إذًا القرينة والظهور. ويقرّر حجيّة ظواهر القرآن، فالاعتماد على الظاهر «في الموارد التي لا قرينة تدلّ على الخلاف» من المباني التي «تضبط عمليّة التفسير»[٢].

ويحـذّر من الوجـه المقابل: تأويل النـصّ بالهوى. ينقل عن أمير المؤمنـين عليه السلام قوله لابن عباس: «لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه... ولكن حاججهم بالسنّة»[٣]، ويرى في زمانه من «يعتمدون على آيات القرآن مسـتخدمين وسائل التأويل». وأصل الوصيّة أنّ ظاهر القـرآن يحتمل وجوهًا، فيتّخذه صاحب الهوى ذريعةً للفتنـة[٤]. وهو المعنى القرآنيّ في ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ [آل عمران: ٧].

---

١ - علي الحسيني الخامنئي: تفسير سورة براءة، ص٦٥.

٢ - علي الحسيني الخامنئي: تفسير سورة براءة، ص٤٥.

٣ - علي الحسيني الخامنئي: العودة إلى نهج البلاغة، ص٢٧.

٤ - الشريف الرضي: نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح، من الكتاب ٧٧.

ويعمّق الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّهُ خطورة هذا الانحراف بربطه بنشأة الفتن، فالباطل «لا يظهر دائمًا... بشكلٍ واضحٍ جليّ»، بل ينزل الميدان «بلباس الحق أو بجزءٍ من الحق»، ويستشهد بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّما بدء وقوع الفتن أهواءٌ تُتّبع، وأحكامٌ تُبتدع، يُخالف فيها كتاب الله»[١]. فالتأويل المنحرف بابٌ للفتنة، لا مجرّد خطأٍ في الفهم، ودواؤه البصيرة؛ وهي عنده أن يتدبّر الإنسان في ما يجري حوله، على ما في قول (عليٍّ) عليه السلام: «فإنّما البصير من سمع فتفكّر، ونظر فأبصر»[٢]. فالفهم الصحيح يقظةٌ وتدبّر، لا تلقٍّ سريعٌ ولا اتّباعٌ للمتشابه بلا رويّة. فالبصيرة شرطٌ في الفهم كما هي شرطٌ في العمل؛ بها يُقرأ النصّ، وبها يُميَّز الحقّ عند اشتباه المسالك.

والمعيار الفارق بين التأويلين واضحٌ عنده. من انطلق من القرائن والظهور إلى المعنى فقد فهم، ومن انطلق من رأيه المسبق إلى النصّ ليحمله عليه فقد أوّل بالهوى. الأول يخضع للنصّ، والثاني يُخضع النصّ لنفسه. ولذلك جعل السنّة حاكمةً على فهم القرآن حيث يُخشى اللبس، فهي التي تفصل بين الوجوه المحتملة وتعيّن المراد. فاستقلال العقل في التأويل مشروطٌ بالبصيرة والقرينة، ممنوعٌ حين ينقلب هوى. وبهذا الضابط يحفظ الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّهُ للنصّ مرجعيّته، ويترك للعقل مجاله في الفهم، فلا يُلغى النصّ باسم التأويل، ولا يُجمَّد العقل باسم الحرفيّة.

## ٤ - التكامل الطولي بين العقل والنقل:

يجمع الإمام الشهيد (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّهُ الطرفين في تكاملٍ متبادل. العقل لا يزاحم النصّ، والنصّ لا يُلغي العقل، بل يعمل كلٌّ في مقامه. القرآن نفسه لا يُدرَك عمق مفاهيمه بلا عقل؛ يقرر قُدِّسَ سِرُّهُ أنّنا بلا فهمٍ صحيح «لن تتمكّن قوّتنا العقليّة من الإدراك الصحيح للمفاهيم القرآنيّة»،

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص٤٢٨.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص٤٢٦.

ويدعــو إلى «قمع الفتنة بمصباح العقل والفكر»[١]. فالعقــل مصباحٌ يضيء النصّ، والنصّ يمدّ العقل بما وراء طاقته. فلا العقل يستقلّ عن النصّ فيدّعي الاستغناء عنه، ولا النصّ يُفهم بمعزلٍ عن العقل الذي يميّز محكمه من متشابهه ويرتّب دلالاته.

ولهذا التكامل ضوابط عمليّة في منهج فهمه للنصّ: الالتفات إلى الســياق، وملاحظة ســائر الآيــات، والرجوع إلى روايات المعصومين مع ردّ غير المعتبر منها، والاعتبار بالمعاني اللغويّة، ثمّ التحليل العقليّ[٢]. النقل يُقرأ في ضوء العقل، والعقل يُضبط بقرائن النقل. وبهذا يعمل العقل والنقــل مصدرين متضافرين في الاجتهــاد الواحد[٣]. وهذا التكامل يحفــظ المعرفة الدينيّة من أمرين: تحجّرٍ يقف عند حرفيّة النقل بلا فهم، وانفلاتٍ يُطلق العقل بلا ضابط النصّ.

مــن هذا التكامل يتبيّن جواب الســؤالين. علاقة الوحي بالعقل علاقــة تعاضدٍ طوليّ: وحيٌ يؤسّس ويقوّم، وعقلٌ يفهم ويستنبط في ضوئه. واستقلال العقل بتأويل النصّ استقلالٌ منضبط بالظهــور والقرينة والبصيرة، ينتهي عند حــدّ الهوى. يبقى أن ننظر كيف تتحوّل هذه المعرفة من نظرٍ إلى فهمٍ حيٍّ متجدّد يواكب الحياة.

## رابعًا: آليات فهم الدين وتجدّد المعرفة الدينيّة:

لا تكفــي المصادر وحدها لتقــوم المعرفة الدينيّة. فهي تحتاج إلى آليّــة تحوّلها من نصوصٍ ومبادئَ إلى فهمٍ حيٍّ يواكب الحياة، وتحتاج إلى ضوابطَ تعصمها من الزلل. نعالج هنا الاجتهاد بوصفــه أداةً لإنتاج المعرفــة، والتفكير المتجدّد ســبيلاً لمواكبة المســتجدّات، وشروط الفهم الصحيح صيانةً للمســار، ثمّ يجمع الخيوط كلّهــا في تصوّرٍ واحد يكون فيه بناء المعرفة الدينيّة عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه أساسًا حاكمًا لفهم الدين.

---

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٤)، ص٢٤١.
٢ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: تفسير سورة براءة، ص٨٠.
٣ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٩)، ص٣٠٠.

### ١ - الاجتهاد آليّة لإنتاج المعرفة الدينيّة:

الاجتهاد، عنـد الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه، هو الآليّة التي تُستخرج بهـا المعرفة الدينيّة من مصادرها. وهو عنده أوسع من الفقه بكثير؛ لأنّ «الاجتهاد لا يختصّ بالفقه، ففي العلوم العقليّة وفي الفلسفة والكلام، اجتهاد أصحاب هذه الفنون ضروري، ولو لم يكن هذا الاجتهاد لأصبحنا مستنقعًا راكدًا»[١]. فالاجتهـاد إذًا حركةٌ دائمة في كل حقـول المعرفة الدينيّة، تشـمل العقيدة والفلسفة والكلام، لا الأحكام العمليّة وحدها. وتعطيله في أيّ حقلٍ منها ركودٌ وجمود.

وحقيقة الاجتهاد استخلاصٌ منهجيّ لا رأيٌ حرّ. عالم الدين، كما تقدّم، يكتسب المعارف من الكتاب والسنّة والعقل، والاجتهاد «كيفيّة استخلاص هذه المعارف من مصادرها»[٢]. فهو إعمال المنهج المنضبط في المصادر لاستخراج الحكم والمعنى، ويقف بين طرفين: بين من يطلق الرأي بـلا ضابط، ومن يجمد على الحرف بلا فهم. وبه تبقى المعرفـة الدينيّة حيّة قادرةً على النموّ من داخلها، تلد من أصولها فروعًا تناسـب كل عصر. ولذلك جعل السيد (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه إحياء الاجتهاد شرطًا لحيويّة الحوزة والفكر الديني، وربط ركوده بجمود المعرفة الدينيّة وانقطاعها عن أسئلة الواقع. فالاجتهاد ضرورةُ بقاءٍ للمعرفة الدينيّة نفسها.

ولا يقف دور الاجتهاد عند فهم النصّ، بل يمتدّ إلى توجيه المعرفة كلّها. من واجبات الحوزة «أن تحدّد اتجاه العلم واتجاه المسيرة العلميّة»، فتصل المعرفة الدينيّة بحركة العلم في المجتمع وتوجّهها[٣]. الاجتهاد بهذا المعنى قيادةٌ معرفيّة للأمة، لا استنباط للأحكام الفرعيّة وحدها.

### ٢ - التفكير المتجدّد والحاجات المستحدثة

ثمرة الاجتهاد تفكيرٌ متجدّد يواكب المسـتجدّات. يجعل الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه «التفكير المتجدّد ضروريًا»، والإجابة عن «الحاجات المسـتحدثة زمنيًا ومكانيًا» واجبةً، لكن «في إطار

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص٤٠٢.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٩)، ص٣٠٠.
٣ - انظر: علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٩)، ص٢٩٩.

المباني والأصول الثابتة»[١]. نقف هنا أمام معادلته الدقيقة: ثباتٌ في الأصول، وتجدّدٌ في الفروع والتطبيقات. فالأصول راسخة لا تتبدّل، والفهم يتحرّك ليلامس أسئلة كل زمان. بهذا يتجنّب جمودًا يجعل الدين عاجزًا عن مخاطبة الحاضر.

ويرى قُدِّسَ سِرُّه في تعدّد الاجتهادات إثراءً لا تهديدًا. فالاجتهاد المبنيّ على الكتاب والسنّة، ولو اختلفت نتائجه، «يؤدّي إلى الارتقاء والتقدّم»[٢]. وهذا التجديد يقرنه بالتعبّد فلا يجعله انفلاتًا، وهو يثني على نموذج الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّه الذي جمع «الإصرار على التعبّد بالتزامن مع النظرة التجديديّة»، على قاعدة الفقه الجواهريّ من غير بدعةٍ فيه[٣]. التجديد حركةٌ داخل الأصول ومنها، لا انقلابٌ عليها ولا خروجٌ منها. وهذا الجمع بين الثبات والتجدّد هو ما يحفظ للدين هويّته وفاعليّته معًا: هويّة تحرسها الأصول، وفاعليّة يمنحها الاجتهاد المتجدّد. فلا الأصول تُمسّ بذريعة مواكبة العصر، ولا الفهم يُجمَّد بذريعة حراسة الأصول.

ويشترط في هذا التجديد أهليّة خاصة. إيجاد المفاهيم الجديدة ومناقشتها «ليس مهمة الجميع»، بل مهمة «العلماء والمفكرين» الملمّين بالمبادئ الإسلاميّة كليًّا، الذين «طالعوا القرآن بدقّة وتلَوه وتدبّروا بعيدًا من الجمود والتحجّر الفكريّ»[٤]. فالتجديد المنضبط يجمع بين جرأة السؤال ورسوخ العلم، ويأبى أن يُترك بابه لكلّ متطفّل. بهذا يصون الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه حركة المعرفة من أن تتحوّل إلى فوضى آراء.

### ٣ - شروط الفهم الصحيح:

ولهذه الحركة شروطٌ تصونها من الانحراف: أوّلها تجنّب طرفين متقابلين يتهدّدان الفهم. يقول السيد (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه: «نرفض التحجّر والجمود... بدعوى التمسّك بالأصول»، ويرفض في

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص٤٠٢.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٠)، ص٤٠٢.
٣ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في الذكرى الحاديّة والثلاثين لرحيل الإمام الخميني، ٣ حزيران ٢٠٢٠.
٤ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء أعضاء مجلس خبراء القيادة، ٢٢ شباط ٢٠٢١.

المقابل «البـدع ودعوات إعادة النظر... بذريعة الاجتهاد والتغيـير»[١]. بين الجمود والانفلات يقوم الفهم الصحيح: أصوليّة بلا تحجّر، وتجديدٌ بلا بدعة. وكلا الطرفين انحرافٌ عن جادّة المعرفة الدينيّة.

وثانيها الكفـاءة والتخصّص. الفهم الدينيّ صنعةٌ لها أهلها، فيحذّر من «أنصاف المتعلمين» الذيـن يتعلّمون بضع كلماتٍ في القضايا الدينيّة ثمّ يتصدّرون للفتيا والتفسـير[٢]. وثالثها طهارة المـدرك وتقواه؛ فصفـاء الفهم مقرونٌ بصفـاء النفس، على ما تومـئ إليه الآيـة: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُـمُ اللَّهُ**﴾ [البقـرة: ٢٨٢]. فالعلم الصحيح يقـترن بالعمل والتزكية، فـلا يُثمر الذكاء وحده فهمًا سليمًا ما لم تصحبه تقوى تعصم صاحبها من اتّباع الهوى. فالشروط الثلاثة تتكامل: توسّـطٌ بين الجمود والانفلات، وكفاءةٌ علميّة تضبـط الأداة، وتقوى تطهّر صاحبها. باجتماعها يصـحّ الفهم، وبفقد أحدها يعتلّ. وهي عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه صمّام أمانٍ يحمي حركة التجديد من أن تنقلب هدمًا.

ويحدّد السيد (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه الخطرين اللذين يتهدّدان إنتاج المعرفة الجديدة: من ناحية «خطر أن يدخل شخصٌ غير مؤهّل، وشبه متعلّم، وانتقائيّ، في استنتاجاتٍ جديدة من الآيات»، ومن ناحية أخرى «خطر أن يتدخّل الشخص المتحجّر» العاجز عن فهمٍ جديد. والفهم الصحيح لمـن «طالعوا القرآن بدقّة وتدبّروا بعيدًا من الجمود والتحجّر»[٣]. وهذا يسـتلزم آليّة وتخصّصًا. أدوات التحقيق -الأصول والتفسير والحديث والرجال- مقدّماتٌ لفهم الكتاب والسنّة، والغور في هذه القضايا بمستواها الاختصاصيّ موضعه الحوزات العلميّة[٤]. فالفهم الدينيّ صنعةٌ لها أدواتها وأهلها، لا مجالَ فيه للارتجال. وبين هذين الحدّين -التطفّل والتحجّر- يقوم الفهم الأصيل: علمٌ راسـخ يجرؤ على السؤال، وتخصّصٌ يضبط الجواب. فليست المعرفة الدينيّة حكرًا على جامدٍ يكرّر، ولا نهبًا لمتسرّعٍ يبتدع.

---

١ - علي الحسيني الخامنئي: نداء القائد، ص٣٢.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٩)، ص٣٠٠.
٣ - علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء أعضاء مجلس خبراء القيادة، ٢٢ شباط ٢٠٢١.
٤ - علي الحسيني الخامنئي: كتاب القصاص، دروس البحث الخارج، ص١.

### ٤ - الأسس المعرفيّة مبدأً ناظمًا:

يبقى أن تُجمع العناصر السابقة في تصوّرٍ واحد. المعرفة الدينيّة عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه بناءٌ مترابط الطبقات، لا عناصر متناثرة. في أساسه أنّ الدين «رؤية كونيّة ومعرفيّة» قبل أن يكون شعائر وأحكامًا[١]، ومن هذا الأساس تتفرّع بقيّة العناصر وتأخذ مواقعها.

يبدأ البناء من الوحي منبعًا وحاكمًا، ويعمل العقل في ضوئه مصدرًا للأصول ومفتاحًا لفهم النصّ، وتسنده الفطرة والقلب والتجربة روافدَ باطنةً وخارجيّة. ثمّ يأتي الاجتهاد آليّة تحوّل هذه المصادر إلى فهمٍ حيّ، ويأتي التفكير المتجدّد سبيلاً لمواكبة الحياة ضمن الثوابت، وتأتي شروط الفهم صيانةً من الزلل. هذه الطبقات لا يزاحم بعضها بعضًا، بل يقوم بعضها فوق بعضٍ في بناءٍ مترابطٍ واحد، أعلاه يحكم أدناه، وأدناه يخدم أعلاه. وبهذا يتبيّن أنّ المعرفة عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه ليست بابًا من أبواب الدين، بل هي الأرض التي يقوم عليها البناء كلّه؛ من التوحيد في القمة إلى العمل في القاعدة، تسري المعرفة في المفاصل جميعًا، وتصل إلى الاعتقاد بالسلوك، والنصّ بالحياة.

وبهذا تكون الأسس المعرفيّة عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه مبدأً ناظمًا لفهم الدين كلّه. فالبصيرة والوعي «مقدمة لازمة للدين»[٢]، ودينٌ يُلغي الفهم بعيدٌ عن تصوّره. المعرفة شرطُ الإيمان الصحيح، وأداةُ العمل السديد، وميزانُ التمييز بين الحقّ والباطل. ومن ضبط أسسها المعرفيّة ضبط تصوّره للدين كلّه: مصدرًا يُستقى منه، وفهمًا يُنتَج به، وحدودًا يُوقَف عندها، وتجدّدًا يواكب الحياة من غير أن يفارق الأصول.

## الخاتمة:

انطلق هذا البحث من سؤالٍ عن موقع المعرفة في الدين عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه، لا عن مضمون الدين نفسه. وسار على الاستقراء: يجمع نصوصه المتفرّقة في خطبه ودروسه ومؤلفاته،

١ - علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي (٢٠١٣)، ص١٥.
٢ - علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ص١٧٣.

ويقرؤها على حالها، ويستخرج منها بنية معرفيّة لم يفردها هو ببحثٍ مستقل. وانتهى إلى أنّ لهذه المعرفة عنده نموذجًا متماسكًا، وإن تناثرت عباراته وتعدّدت مواضعها.

أوّل ما تقرّر أنّ الدين في أساسه معرفةٌ ورؤية للعالم والإنسان والمصير، تتفرّع عنها الشعائر والأحكام ولا تتقدّم عليها. ومن هذا الأصل صار السؤال المعرفيّ مدخلاً إلى الدين كلّه: كيف يُعرف، قبل استقصاء ما يُعرف منه؟ فالبصيرة والوعي عنده مقدّمة لازمة للتديّن، لا زيادة عليه.

وتبيّن أنّ مصادر هذه المعرفة أربعة تتضافر في ترتيبٍ متكامل: الوحي منبعًا وحاكمًا، والعقل مصدرًا وأداةً، والفطرة والقلب منبعًا داخليًا، والتجربة العقلائيّة سندًا. أعلاها يضبط ما دونه، وأدناها يخدم ما فوقه، من غير أن يستقلّ أحدها بذاته أو يُلغي غيره. ووحدةُ هذا البناء هي التي تحفظ المعرفة الدينيّة من الانفراط.

وعن السؤال الأول -طبيعة العلاقة بين الوحي والعقل- استقرّ الجواب على تعاضدٍ متدرّج. العقل يعمل في ضوء الوحي، والوحي يخاطب عقلاً يفهم. الدين جاء لهداية العقل وإعانته، لا بديلاً عنه ولا ناسخًا له، والعقل حجّةٌ باطنة تصدّق حجّة الوحي الظاهرة. بهذا يمتنع طرفان: عقلٌ يستبدّ فيصوغ دينًا على مقاسه، ونقلٌ يجمد فيغلق باب الفهم.

وعن السؤال الثاني -مدى استقلال العقل بتأويل النصّ- استقرّ الجواب على استقلالٍ منضبط. للعقل أن يفهم النصّ ويستنبط منه إذا انطلق من القرائن والظهور. حجّيته في القطعيّ من مدركاته، والظنّ المجرّد كالقياس والاستحسان مردود، والتأويل بالهوى ممنوع، والسنة حاكمةٌ على القرآن حيث تُخشى الوجوه المحتملة. فالحدّ الفاصل أن يخضع القارئ للنصّ، لا أن يُخضع النصّ لرأيه المسبق.

وتبقى هذه المعرفة حيّة بالاجتهاد، متجدّدةً بالتفكير الذي يواكب المستجدّات في إطار الأصول الثابتة، مصونةً بثلاثة شروط: التوسّط بين الجمود والانفلات، والكفاءة العلميّة، وتقوى المدرِك. الثبات في الأصول، والحركة في الفهم، هذه معادلته التي تحفظ للدين هويّته وفاعليّته معًا.

ولمّا عُرض هذا المستخرَج على ما قرّرته الحكمة المتعالية، التي تمثل الخلفيّة الفلسفيّة

للإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه، ظهر انسجامٌ في الجوهر: طوليّة المصادر، ومحوريّة العقل الموصول بالوحي، ومراتبُ المعرفة الصاعدة من البرهان إلى الشهود القلبيّ. وهذا الانسجام يمنح النموذج المستخرَج عمقًا فلسفيًا، ويصله بتقليدٍ عقليٍّ أصيلٍ في الفكر الإسلامي، من غير أن يُخرجه عن كونه قراءةً في نصوص الإمام لا إسقاطًا عليها.

وبهذا كلّه تكون الأسس المعرفيّة عند الإمام (الخامنئي) قُدِّسَ سِرُّه محورًا حاكمًا لفهم الدين كلّه. فالمعرفة ليست بابًا من أبوابه، بل الأرض التي يقوم عليها بناؤه: شرطُ الإيمان الصحيح، وأداةُ العمل السديد، ومقياسُ التمييز بين الحقّ والباطل. ومن ضبط أسسها المعرفيّة ضبط تصوّره للدين مصدرًا وفهمًا وحدًّا وتجدّدًا. وذلك ما سعى هذا البحث إلى تحريره، من غير إسقاط نظريّة سابقة، ولا تحميلٍ للنصوص ما لا تحتمل.

# المصادر والمراجع

## أولًا: القرآن الكريم وكتب الحديث والتراث


- القرآن الكريم.
- روح الله الموسوي الخميني (ت ١٤٠٩هـ): الأربعون حديثًا.
- محمد بن الحسين الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ): نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح، بيروت.
- محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ): الكافي، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، ط٤، طهران، ١٣٦٢ش.


## ثانيًا: مؤلفات الإمام السيد علي الحسيني الخامنئي


- علي الحسيني الخامنئي: إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، مركز نون للتأليف والترجمة، بيروت.
- علي الحسيني الخامنئي: تفسير سورة براءة، ترجمة محمد زراقط، دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة، بيروت، ٢٠٢٠م.
- علي الحسيني الخامنئي: العودة إلى نهج البلاغة، ترجمة عباس نور الدين، مركز بقيّة الله الأعظم، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.
- علي الحسيني الخامنئي: مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، ترجمة عباس نور الدين، دار المعارف الحكميّة، بيروت، ٢٠١٥م.
- علي الحسيني الخامنئي: نداء القائد، المستشاريّة الثقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة في لبنان، بيروت، ١٩٩٤.
- علي الحسيني الخامنئي: كتاب القصاص، دروس البحث الخارج.
- علي الحسيني الخامنئي: خطاب الولي، إعداد مركز نون للتأليف والترجمة، بيروت (سلسلة

سنويّة؛ الأعوام المستشهَد بها: ٢٠٠٩، ٢٠١٠، ٢٠١١، ٢٠١٣، ٢٠١٤، ٢٠١٦، ٢٠١٧، ٢٠١٩).

**ثالثًا: خطب الإمام الخامنئي وكلماته**

- علي الحسيني الخامنئي: كلمة بمناسبة المبعث النبوي الشريف وحلول العام الهجري الشمسي، ٢٢ آذار ٢٠٢٠.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة في محفل الأنس بالقرآن الكريم، ٢٥ نيسان ٢٠٢٠.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة في الذكرى الحادية والثلاثين لرحيل الإمام الخميني، ٣ حزيران ٢٠٢٠.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة بمناسبة عيد المبعث النبوي الشريف، ١١ آذار ٢٠٢١.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة في محفل الأنس بالقرآن الكريم، ١٤ نيسان ٢٠٢١.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة في الذكرى الثانية والثلاثين لرحيل الإمام الخميني، ٤ حزيران ٢٠٢١.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء جمع من طلاب الجامعات، ١٨ نيسان ٢٠٢٣.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء المشاركين في مسابقات القرآن الكريم الدوليّة، ٢٢ شباط ٢٠٢٤.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء مسؤولي البلاد وسفراء الدول الإسلاميّة، ٨ شباط ٢٠٢٤.
- علي الحسيني الخامنئي: كلمة في لقاء مسؤولي البلاد وسفراء الدول الإسلاميّة، ٢٨ كانون الثاني ٢٠٢٥.